

بين الوطنية والأمية

للاستاذ ساطع بك الحصري

مدير الآثار بال عراق

تتمة

— يجب أن تتفكك أوصال الأوطان الموجودة وتنحل الروابط الوطنية الحالية ... يجب أن تزول كل هذه الروابط التي تجمع « المال وأصحاب رؤوس الأموال » في كل وطن تحت لواء واحد، وتفرق بين المال الذين ينتسبون إلى دول وأوطان عديدة ... يجب أن تترك هذه الروابط الوطنية محلها إلى رابطة جديدة مؤسسة على أساس الطبقات ... بهذه الصورة وحدها يتم النصر للنظام الشيوعي في كل العالم، وبهذه الصورة وحدها تتم سيادة المال ورفاهتهم ...

— هذه هي — على وجه الإجمال — أهم الآراء التي تدلى بها « الشيوعية الأممية » في أمر النزعات الوطنية ...

إن هذه الدعاية الشيوعية كانت تقوم على عوائق بعض الأفراد والجماعات، حتى زمن الحرب العالمية ... غير أن الشيوعيين تمكنوا — في أواخر الحرب العالمية — من الاستيلاء على مقاليد الحكم في دولة من أعظم دول العالم، وأسسوا فيها نظاماً شيوعياً ... وهذه الدولة الشيوعية — أي روسيا السوفيتية — أخذت على عاتقها مهمة الدعوة إلى الشيوعية في كل أنحاء العالم، وصارت تقوم بهذه المهمة بكل ما لديها من وسائل مادية ومعنوية، من أموال وافرة إلى تشكيلات منتظمة ...

— إن آلام الفقر وآمال الرفاهة التي تستولي على نفوس العمال من جهة، والدعاية الخلابية التي تقوم بها روسيا السوفيتية — مستندة إلى تشكيلات واسعة النطاق وبحكمة الترتيب — من جهة أخرى ... قوت النزعة الأممية الشيوعية في بعض البلاد، وأقامت بهذه الصورة أمام النزعة الوطنية عدواً جديداً خطراً جداً ...

والنزعة الوطنية لم تتعاس عن العمل تجاه هذا العدو بطبيعة الحال. إنها أخذت تناضل الشيوعية بحزم شديد وقوة كبيرة،

الذي يغطي رأسه، وما عداه من الحيوان لا يعرف تغطية الرأس. وكذلك أحكم بأن كشف الرأس يقرب الانسان من الحيوانية فأخذني من يدي وانتحى ناحية وقال: كيف تقول أمام معالي وزير المالية إننا حيوانات؟

فقلت: معاذ الأدب أن أقول ذلك، وإنما شرحت المسألة من وجهة علمية، فقررت أن الانسان هو الذي يغطي رأسه من بين سائر الحيوان

فقال: ولكنك على كل حال جرحتنى، فإن كنت جاداً فلتعلم أنه لا يستطيع أحد في العراق ولا في مصر أن يخاطبني بمنزل هذا الكلام. وإن كنت مازحاً فاصح لي أن أصارحك بأن للرجل أن يمزح، ولكن ليس له أن يخرج على التدوق فقلت: ما كنت جاداً ولا كنت مازحاً، وإنما كنت أقرر حقيقة علمية

فقال: يظهر أن ما سمعت عنك صحيح

فقلت: وماذا سمعت؟

فقال: سمعت وقرأت أنك رجل مشاغب، ومن واجبي أن أنبهك إلى أني سحبت منك الدعوة لحضور السهرة المقبلة

فقلت: ذلك ما لا تملك

فقال: ستعرف أن ذلك مما أملك

وانصرف وانصرف

ورجعت إلى منزلي مبسلاً الخواطر وأنا أقول: هذا ذنب ليلي، هذا جزاء من يخالف ليلي، فلو كانت ليلي معي في السهرة لفُصرت جميع ذنوبي، فقد علمتني التجارب أن الرجال الذين لهم زوجات سوا فر تُفرض لهم مصالح لا تُفرض لأمثالنا أبداً، نحن المحافظين المنغلين الذين يجهلون خلق الزمان

أستطيع أمين العاصمة أن يحجبني عن ليلة بغداد بعد أن أضمت من العمر ما أضمت في التنفي بتاريخ بغداد؟ أفى الحق أنه أعرق مني لأن من مواليد مصر وهو من مواليد العراق؟

ستري يا أمين العاصمة أننا أقرب إلى قلب بغداد، وستري

في الليلة القادمة كيف تلقاني وألقاك

(الحدث شجون)

زكي مبارك

المشكلة دون أن تسترسل في تضحية المؤسسات الاجتماعية وهدمها، ودون أن تهاون في « الوطنية » فتقدم على خالفها ... فإن « الاشتراكية الوطنية » - مثلاً - تقول بأن الحياة الصناعية تحتاج إلى معالجة جدية ، غير أن هذه المعالجة يجب أن تبقى دائماً داخل نطاق الوطنية ... إن للمال حقوقاً طبيعية يجب أن يناقشها ، غير أنه يجب أن يعرفوا - في الوقت نفسه - أن هناك أمة يجب أن يخدموها ، ووطن يجب أن يعتزوا به ، ودولة يجب أن يعتمدوا عليها ... ولأصحاب رؤوس الأموال أيضاً حقوق يجب ألا يفقدوها ، غير أنه يجب أن يعرفوا هم أيضاً أن هناك أمة ووطناً ودولة ، وأن الأموال التي تحت حيازتهم لم تكون وتتجمع إلا بفضل مساعي العمال وبفضل أعمال الدولة التي تضمن الأمن العام ، وتنشئ المرافق العامة . فللدولة والأمة والعمال أيضاً حق في هذه الأموال . فعلى الحكومة أن تتولى بنفسها تنظيم العلاقات بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال على ضوء هذه الأسس ؛ عليها ألا تترك هاتين القوتين وشأنهما تتنازعا ، وعليها أن تعمل كل ما يمكن عمله لجل هاتين القوتين متأزرتين كما تقتضيه مصالح الأمة والوطن ...

فستطيع أن تقول بهذا الاعتبار إن الاشتراكية الوطنية السائدة في ألمانيا تكون قطباً مما كنا للشبيوعية الحاكمة في روسيا ... وأما النظم النقابية المؤسسة في إيطاليا فهي أيضاً تقف في هذه القضية بجانب الاشتراكية الوطنية موقفاً مما كنا لموقف الشيوعية ...

فإن الشيوعية لاتبالى بالوطنية ، وتدعو إلى الأمية ؛ في حين أن النازية - مثل الفاشية - تتمسك بالوطنية وتعارض الأمية ...

إن عنصر الأمية الذي يدخل في تكوين الشيوعية هو الذي يجعلها خطراً على كيان سائر الدول ، ويضطر الأحزاب الوطنية فيها إلى مقابلتها بشدة ، ومنازلتها بعنف ... لأن البلشفية لا تهدد كيان الدول والأمة من جراء احتمال إقدامها على شن الغارة عليها بواسطة حملات عسكرية ترسلها من وراء حدودها فقط ... بل تهدد كيان الدول والأمة في داخلها

فاتصرت عليها في بعض البلاد ، كما فعلت النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا ... غير أن النضال لا يزال سجلاً بين الزعيتين ، مادة وجهاراً ، كما في أسبانيا ، أو معنى وخفية - كما في عدد غير قليل من سائر البلدان فيجدر بنا أن نتمرف إلى أوجه هذا النضال من قرب ، وبشيء من التفصيل :

— إن الانقلاب الصناعي الذي بدأ في أوائل القرن الأخير - والذي لا يزال مستمر إلى الآن - زاد في فروق الثروة بين الناس زيادة هائلة ، وأوصل مشا كل المعيشة إلى درجة لم يسبق لها مثيل ... لا شك في أن هذا التطور العظيم الذي حدث في الحياة الاجتماعية كان يتطلب نظرات وأنظمة حقوقية جديدة تضمن لكل حق الحياة والعمل بالعدل الذي يقتضيه هذا التطور العميق .

غير أن الحكومات لم تقدر خطورة هذه الأوضاع حق قدرها ، فلم تقدم على سن القوانين الضرورية لمعالجتها ... وذلك أفسح مجالاً أمام أصحاب رؤوس الأموال للاستبداد بحياة العمال بدون تأمل ، وللإسترسال في استغلال أنماهم بدون إنصاف ... وهذه الحالة ولدت الاشتراكية التي أخذت تطالب الحكومات بوضع حد لهذا الاستبداد ، وسن قوانين جديدة تثبت حقوق العمل وتضمن إنصاف العمال ، وتمنع تضخم رؤوس الأموال على شقاء الآلاف بل الملايين من العمال ... غير أن الحكومات قاومت في بادئ الأمر الحركة الاشتراكية ومطالبها مقاومة شديدة ، وهذه المقاومة أدت إلى حموات سلسلة ثورات واعتصامات عنيفة كما أدت إلى تفرع الاشتراكية إلى فروع ومذاهب متنوعة . فاختلفت لذلك المذاهب الاشتراكية اختلافاً كبيراً من المتدلة إلى المتطرفة ، ومن الوطنية إلى الأمية

وإن الشيوعية هي « الطريقة المتطرفة » التي قامت لمعالجة قضية العمل على أساس هدم كل شيء يقف حجر عثرة في سبيلها ، ولم تتردد في إدخال « الوطنية » أيضاً في عداد الأمور التي لا لزوم للتمسك بها .. حتى أنها أوصلت المفالة إلى درجة القول بأن الوطنية أيضاً من المؤسسات التي يجب هدمها ...

وأما المذاهب الاشتراكية الأخرى ، فإنها تسمى إلى معالجة

من جراء الدعايات التي تقوم بها بين أهلها، وبواسطة التشكيلات التي توجد بها بين أبنائها ...

وهذا الذي يجعل النضال بينها وبين معارضيها عنيفاً جداً ... ماذا يجب أن يكون موقفنا نحن - أبناء العرب - من هذا النضال العنيف ؟ بين هذه المذاهب الاجتماعية المتضاربة ؟

أولاً - يجب أن نلاحظ قبل كل شيء أن المشاكل التي تعانيها نحن أبناء العرب تختلف اختلافاً كبيراً عن المشاكل التي تعانيها تلك البلاد ؛ فمن الخطأ أن نفكر في اقتباس نظام من تلك النظم على علته ... غير أن موقف هذه النظم المختلفة من النزعة الوطنية والقومية يجب أن يدلنا على النظام الذي يجب أن نتباعد عنه كل التبعاد ، ونحذر منه كل الحذر ... ويجب علينا أن نلاحظ في الوقت نفسه ، أن الأضرار التي تنجم من الاصغاء إلى الدعاية الأثمية لا تكون متساوية في كل البلاد ، بل إنها تزداد وتنقص ، نظراً إلى ضعف النزعة الوطنية والقومية السائدة في البلاد أو قوتها

نصوروها الأمة ناهضة متحدة متصفة بشعور قومي عميق ، ونزعة وطنية شديدة ، قد تأصلت الوطنية والقومية في نفوس أبنائها حتى أنها دخلت في طور الإفراط والتمدد ، فصارت تحمل القوم على التوسع على حساب غيرها عن الأمم . لاشك في أن رياح النزعة الأثمية إذا هبت على النفوس في مثل هذه الأمة لا تستطيع أن تجتث شجرة الوطنية من جذورها ، فلا يمدى تأثيرها حدود بعض الأضرار الطفيفة من نوع إسقاط الأوراق أو كسر الأغصان ... إن انتشار فكرة الأثمية بعض الانتشار بين أبناء تلك الأمة لا يززع بناء الوطنية زعزعة خطيرة ، وكل ما يعمل به ينحصر في كسر ثورة الإفراط ، وتخفيف أطباع التوسع والاستعمار ...

ثم تصوروا أمة - بمكس تلك - متأخرة في حضارتها ، متفرقة في سياستها ، مترددة في وطنيتها ، استيقظت من سبات عميق في عهد قريب ؛ فلم يمحض على يقظتها الوقت الكافي لاختيار الفكرة القومية في نفوس أبنائها ، فلم يتم بعد « تكوّن الشعور القوي » و « تأصل النزعة الوطنية » في تلك النفوس . لاشك في أن تأثير الرياح « الأثمية » على أمة كهذه

الأمة يكون خطراً جداً ، لأنه يوقف اختبار الفكرة القومية في بدء عملها ، ويحول دون تكوّن الشعور القوي العام في بدء عهده ؛ ويعت تبشير النزعة الوطنية الحق قبل أن تتأصل في النفوس .. إنني أعتقد بأن نظرة واحدة إلى حالة البلاد العربية والأمة العربية - على ضوء هذه الايضاحات - تكفي دلالة قطعية على أن انتشار النزعة الأثمية - ولو قليلاً - يكون مضرراً جداً ، بل مهلكاً وقتالاً بالنسبة إلى أبناء الضاد ...

فينبغي علينا أن نبذل أقصى الجهود لمنع تسرب النزعة الأثمية إلى النفوس في جميع الأقطار العربية

هذا ، وقد لاحظت أن بعض الشبان ، في مختلف البلاد العربية ، يخلطون بين قضية السياسة الخارجية وأمر النظم الداخلية خطأً غريباً . فكثيراً ما يتساءلون خلال مناقشة مثل هذه المسائل : أية دولة أكثر مطامح في البلاد العربية ؟ هل لروسيا مطامح استعمارية في البلاد العربية ؟ ألم يكن خطر الاستعمار الإيطالي أكبر من سائر الأخطار ؟

إنني أعتقد أن وقوف هذا الموقف تجاه المسائل الداخلية والاجتماعية لا يتفق مع منطق السياسة والاجتماع ، لأن علائق الدول الخارجية لا تتأسس على أشكال نظمها الداخلية . فالدول تتفق أو تتخاصم حسب منافعها ، دون أن تنظر إلى مشابهة أشكال إدارتها أو مخالفتها . فقد رأينا - مثلاً - خلال الحرب العالمية أن فرنسا اتفقت مع انكلترا وروسيا ، مع أنها كانت جمهورية ، في حين أن انكلترا كانت ملكية دستورية وروسيا القيصرية كانت من الحكومات الاستبدادية . وقد انضم إلى هذه الدول الثلاث ، خلال الحرب العالمية ، عشرات من الدول الأخرى على اختلاف نزعاتها في السياسة الداخلية

فيجب علينا أن نمتد كل الاعتقاد بأن اعتناق أي مذهب اجتماعي لا يخلصنا من الأخطار المحدقة بنا ، كما أن عدم اعتناق أي مذهب من المذاهب الاجتماعية لا يعرضنا إلى أخطار خارجية غير الأخطار التي تحيط بنا ...

فعند ما ننعم النظر في أمر صلاح أو عدم صلاح النظام الشيوعي لبلادنا لا يجوز لنا أن نبني أحكامنا على سياسة إيطاليا أو روسيا في الأمور الدولية بوجه عام ، أو في أمور البلاد

العربية بوجه خاص ... بل يجب أن نفكر في صلاح أو عدم صلاح هذا النظام بالنظر إلى أحوالنا الداخلية فقط ...

وربما كان وضع الدولة التركية تجاه هذه المسألة من أحسن الأمثلة وأقطع الأدلة في هذا الباب

تعملون أن تركية مدينة بشيء كثير من حياتها الآن إلى أوضاع روسيا السوفيتية ... لأن الدولة الروسية كانت عدوة تركيا التاريخية حتى نهاية الحرب العالمية ... غير أنها بعد أن تلبشت تركت عداها القديم ، بل بعكس ذلك أخذت تسند الدولة التركية ضد الدول الأوربية ، وصارت تساعد بكل الوسائل الممكنة ، وفما أمدتها بالأموال والأسلحة والمتاد خلال مناضلاتها الاستقلالية ، وحافظت على هذه السياسة نحوها منذ ذلك الحين . فتركية كانت أول دولة تصادقت مع روسيا السوفيتية ، وهي لا تزال من أخلص أصدقائها ... وهي مع كل هذا من أشد أعداء البلشفية ، وهي تطارد وتعاقب بشدة كل من ينتسب إلى الشيوعية أو يقوم بدعاية للشيوعية ... وروسيا البلشفية لا تزال صديقة تركية ، بالرغم من مخالفة الأخيرة للنظم البلشفية في أمورنا الداخلية ...

هذه حقيقة واقعية ... وكثيراً ما يصادف المرء في الصحف التركية عدة فصول في وصف حفلات التكريم التي تقام للوفود الروسية ... وبجانب هذه الفصول عدة فقرات تذكر أخباراً متنوعة عن محاكمة الأشخاص الذين سجنوا لانتسابهم إلى الشيوعية ، وعن الأحكام العقابية التي صدرت عليهم من المحاكم المختصة

فلا بد لي أن أذكر في هذا الصدد كلمة مشهورة قالها أحد عظماء فرنسا خلال مناقشة برلمانية ، قبل مدة تزيد على نصف القرن : كان « جول فرى » من أبطال الفكرة العلمانية في فرنسا . حارب الكهنوتية أشد الحاربة ، ووضع القوانين التي تحدد ساحة عمل رجال الدين تحديداً كبيراً ، وسمى طول حياته إلى حرمانهم حق فتح المدارس والاشتغال بالتربية والتعليم ... ومع كل ذلك لم يتوان عن مساعدة رجال الدين في الأعمال التي يقومون بها خارج فرنسا ... حتى أنه لم يتردد أحياناً في مساعدة أعمال الإرساليات التبشيرية بالوسائل

الدبلوماسية أو بالقوة العسكرية ... فقد اعترض البعض على هذه السياسة المتناقضة ، واستنكروا حماية أعمال رجال الدين في خارج فرنسا في نفس الوقت الذي كانت تمنع فيه هذه الأعمال داخل فرنسا ... فصعد « جول فرى » على المنبر وقال كلمة المشهورة : إن عداوة الكهنوت ليست من الأمتعة التي يجوز تصديرها إلى الخارج ...

وأراد أن يقول بذلك : إن عداوتنا للكهنوت يجب أن تبقى من خصائص سياستنا الداخلية وحدها ... وهذه العداوة يجب ألا تمنعنا عن الاستفادة من رجال الدين في سياستنا الخارجية في أمر توسيع نفوذنا خارج فرنسا ...

إنني أعتقد بأن الوقائع والحقائق التي سردتها لكم لا تترك مجالاً للشك في أن كل من يقول بوجوب اعتناق المذهب الشيوعي لدفع أخطار دولة أو لاسترضاء أخرى يكون قد سلك مسلكاً لا يقره « منطق الحقائق » بوجه من الوجوه ...

فملينا أن ننظر إلى القضية في ذاتها كمسألة داخلية صرفة مجردة عن كل الاعتبارات الخارجية فنسأل أنفسنا : هل يجوز لنا أن نصنى إلى نداء الأهمية الشيوعية أم لا ؟ ...

إنني أعتقد أن وضع المسألة على هذا الشكل الواضح لا يترك مجالاً للتردد في الجواب اللازم لها ... فقد قال أجدادنا :

بلادى وإن جارت على عزيزة وأهلى وإن ضنوا على كرام !
أعتقد أن هذا القول يتضمن أحسن وأبلغ الأجوبة على نظرية الأهمية الماركسية ...

لا أود أن أقول - بذلك - إنه يجب علينا أن نترك الأمور على حالها ، فلا نفكر في إزالة الجور عن أفراد الأمة ... بل أقول - بعكس ذلك - يجب علينا أن نبذل كل الجهود لإصلاح الأحوال وإزالة الجور بأعظم ما يمكن من السرعة ... على ألا نخرج في أعمالنا وتدابيرنا عن مقتضيات الوطنية ، وأن نمتد في كل حين : أن الوطن قبل كل شيء وفوق كل شيء ...

سالمع المصري